Vol 07/ Issue 01/ March 2025/ pp 24 – 41
ISSN : 2676-234X / EISSN : 2716-9006

Social Empowerment Journal
University Amar Telidji of Laghouat-Algeria

Discourses on the decline of theories of media and communication

Saddek Rabah
Department of Media, College of Arts and Sciences, Qatar University (Qatar), e-mail : saddekr@gmail.com

ORCID: https://orcid.org/0000-0002-5745-2521

Received: 10/02/2025; **Accepted**: 17/03/2025, **Published:** 31/03/2025

Keywords

theory; post-theory; media and communication theories; discourses; digital technologies; big data.

Abstract

This research paper examines discourses that predict the decline of theory, particularly within media and communication studies, and the rise of a post-theoretical era. It critically explores the contexts in which these claims are made, especially in relation to digital technologies and big data. The paper argues that these discourses often hold more ideological than scientific value. It also stresses the importance of revisiting the research philosophy, conceptual frameworks, and epistemological foundations within media and communication theories, as well as the social sciences more broadly. The paper calls for the development of innovative approaches that better align with the evolving technological and media landscape.

Corresponding Author: Saddek Rabah
DOI 10.34118/sej.v7i1.4150

مجلة التمكين الاجتماعي
جامعة عمار ثليجي الأغواط – الجزائر

المجلد 07 / العدد 01 / مارس 2025 / ص ص 24 – 41
ISSN : 2676-234X / EISSN : 2716-9006

نظريات الإعلام والاتّصال وخطابات الأفول

الصادق رابح
قسم الإعلام، كلية الآداب والعلوم، جامعة قطر(قطر)، البريد الإلكتروني: saddekr@gmail.com
ORCID: https://orcid.org/0000-0002-5745-2521

تاريخ الاستلام: 2025/02/10 - **تاريخ القبول:** 2025/03/17 - **تاريخ النشر:** 2025/03/31

الكلمات المفتاحية

النظرية، ما بعد النظرية، نظريات الإعلام والاتصال، الخطابات، التكنولوجيات الرقميةّ، البيانات الضخمة.

الملخص

تتناول هذه الورقة البحثية الخطابات والرؤى التي تتنبأ بأفول النظرية، بما في ذلك نظريات الإعلام والاتصال، وظهور عصر ما بعد النظرية. من خلال تحليل هذه الخطابات، تستكشف الورقة السياقات التي تدعم فكرة تراجع النظريات، لاسيما تلك المتعلقة بالتكنولوجيات الرقمية والبيانات الضخمة. وتؤكد الورقة على أن هذه الخطابات غالباً ما تحمل طابعاً إيديولوجيا أكثر من كونه طابعا علميا. في الوقت نفسه، تشدد الورقة على ضرورة إعادة النظر في فلسفة البحث، والإطار المفاهيمي والمعرفي في مجالات الإعلام والاتصال والعلوم الاجتماعية بشكل عام، وتطوير مقاربات مبتكرة تتماشى مع التحولات السريعة في البيئة التكنولوجية والإعلامية المعاصرة.

المؤلف المرسل: الصادق رابح

DOI 10.34118/sej.v7i1.4150

1- مدخل:

يعتبر التّحول الذي أحدثته التّكنولوجيات الرّقمية في طرق ممارسة العلوم الإنسانية الاجتماعية، بما ذلك الدّراسات الإعلامية والاتّصالية، من الموضوعات التي غدت حاضرة بقوة في الفضاء البحثي الإنساني والاجتماعي. وقد تزامن ذلك مع بعض "النّبوءات" باقتراب أفول عصر النظرية، أو عصر "ما بعد النظرية" بعبارة شاينفيلدت (***Scheinfeldt***, 2012). فمصادر البيانات الضّخمة، حسب هذه الرؤى، تجعل العلوم القائمة على الفرضيات والنّماذج القابلة للاختبار، والتّحقق من النّماذج النّظرية قد عفا عليها الزمن، خاصة مع أزمة القياس وصعود النّماذج المتنافسة بين الأساليب الإحصائية التّقليدية وأساليب التّعلم الخوارزمي والآلي. فهذه البيانات الرّقمية الضّخمة، حسب هذه المقاربات، لا تعتبر فقط مصدرا مهمّا لفهم الكثير من السّيرورات الاجتماعية، والتّعقد الاجتماعي، وإدارة الأزمات، بل تمثل أيضا تحدّيا للممارسات البحثية وطرق إنتاج المعرفة. بينما تميل قراءات أخرى إلى اعتبار أن البيانات الضّخمة وأساليب تحليلها يغلب عليها الطابع الوصفي، وتفتقد إلى تقديم تفسيرات معمّقة للظواهر، ويغيب عنها استخدام نماذج متماسكة وموحّدة.

فمنذ أن نشر كريس أندرسون ***Chris Anderson*** مقاله "نهاية النّظرية. طوفان البيانات يجعل المنهج العلمي عتيقا" في مجلة وايرد ***Wired*** سنة 2008، قيل الكثير حول المقال وعدّه كثيرون استفزازيا. فقد وصف اندرسون مشهدا تكنولوجيا تقوم فيه الخوارزميات والبرمجيات ببناء رؤى ثاقبة بطرق يعجز الخبراء من البشر عن الإتيان بمثلها. إذ يرى أن أنظمة الحقيقة، بتعبير ميشال فوكو (**ناصر، 2021**)، التي يقول بها المنظّرون قد عفا عليها الزمن، لأن العمليّات الحاسوبية التي تتّسم بالسرعة وقوة الأداء هي التي تقود حاليا الاكتشافات والابداعات. فالبيانات الضخمة هي التي توفّر، في الواقع، مفاتيح "سحرية" لاكتشاف أسرار العالم. فالحوسبة تملك قدرة، لا مثيل لها من قبل، على جمع وإدارة هذه البيانات الضّخمة وتحويلها إلى أنماط للاستخدام البشري، دون الحاجة إلى تجارب ونماذج وفرضيات، إذ يكفي فقط "السماح للأرقام للحديث عن نفسها" (***Anderson***, **2008**؛ **اندرسون، 2021**). وقد وجد حديث اندرسون حول أفول النّظرية صدى له في الكثير من الفضاءات، وتجلي ذلك مثلا في العلوم الإنسانية الرّقمية، حيث انتشر شعار "ممارسة أكثر وتنظيرا أقل" (***more hack, less yack***) (***Nowviskie***, 2016). كما ظهر القلق من نهاية النّظرية في المخاوف حول نهاية العمل الفكري بسبب الأتمتة الخوارزمية، واختزال " تصرفات البشر في معادلات تبدو علمية" (**الفواز، 2017**)، والهواجس المرتبطة بتقلّص القدرات الفكرية البشرية في مجتمعات تميل أكثر فأكثر إلى تفويض القرارات بشكل متزايد للآلات. علاوة على ذلك، ترتبط احتمالات نهاية النّظرية سواء بالفجوات المنهجية التي لم يتم تجاوزها بين الممارسة العملية

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

والعمل النّظري، أو بالانقسام القائم بين الفكر والفعل، والتّركيز على "الفعل" كأسلوب أكثر موثوقية ومصداقيّة في التّعبير عن الاندماج والتّناغم الفردي والجماعي مع العالم الرّقمي.

تتوقّف هذه الورقة البحثية عند هذه السّياقات، ويجتهد في مقاربة مفهوم النّظرية باعتباره مفهوما احتفى به البعض، ونعاه البعض الآخر وأعلن عن أفوله. ولا تسعى الى تقديم معالجة شاملة لما يمكن أن تكون عليه النّظرية عندما يتعلق الأمر بوسائل الإعلام والدّراسات الإعلامية والاتصالية، بل ستحرص على وضع معالم لبعض القضايا الجوهرية التي توضح أن الحديث عن أفول النظرية يعبر عن موقف أيديولوجي أكثر منه تعبيرا عن مقاربة علمية، وتقديم بعض الاجتهادات حول دور النّظرية بشكل عام، ودورها في حقل الدّراسات الإعلامية والاتصالية بشكل خاص، وذلك بهدف تبيان مدى الأهمية المحورية والمستمرة لبعض أشكال البحث النّظري والجهد التّأملي.

- عتبات منهجية

يشهد العالم اليوم تحولا جذريا في ممارسات العلوم الإنسانية والاجتماعية نتيجة للتّقدم التّكنولوجي الكبير، خاصة في مجالات البيانات الضخمة والحوسبة المتقدمة. ومع انتشار هذا التّحول، ظهرت نقاشات حول إمكانية "أفول النّظرية" في ظل تطور الأدوات الرقمية القادرة على معالجة وتحليل كميات هائلة من البيانات بسرعة ودقة، وهو ما يطرح تحديا لمنهجيات البحث التقليدية المعتمدة على الفرضيات والنظريات القابلة للاختبار. في هذا السياق، يبرز التّساؤل حول ما إذا كان هذا التّحول يشير إلى نهاية للمنهج العلمي التقليدي الذي يعتمد على النظرية، أو أن الحديث عن "أفول النظرية" يمثل مجرد رد فعل أيديولوجي ضد النماذج الرّقمية الحديثة، دون تقديم بدائل فعالة للتّفسير العميق للظواهر الاجتماعية.

هل تؤدي البيانات الضخمة وأساليب التعلم الآلي فعلا إلى تهميش دور النّظريات العلمية في فهم الظواهر الاجتماعية والإعلامية؟ أم أن التكامل بين المنهجيات الرقمية والنظريات التقليدية يمثّل مسارا أكثر تكاملا يساهم في إثراء فهمنا للسيرورات الاجتماعية؟ وكيف يمكن للباحثين في العلوم الإنسانية والاجتماعية، بما في ذلك الدراسات الإعلامية والاتصالية، أن يتعاملوا مع هذا التّحول دون التخلي عن أهمية النظرية التي تقديم تفسيرات معمّقة وتوجّهات نقدية لممارسات الأتمتة والتحليل الخوارزمي؟ هل يمكن اعتبار دعوات "أفول النظرية" في سياق البيانات الضّخمة والذكاء الاصطناعي تعبيرا عن تطور منطقي للمعرفة العلمية أم أنها تعكس موقفا أيديولوجيا؟ ما هي التّحديات التي تواجهها الدراسات الإعلامية والاتصالية في ظل التّحول الرّقمي والاعتماد على البيانات الضخمة، وكيف يمكن أن تؤثر على فهم الظواهر الاجتماعية والاتصالية؟

تكتسب هذه الورقة البحثية أهمية كبيرة في ظل التّحولات التّكنولوجية المتسارعة التي يشهدها العالم، والتي أثرت بشكل عميق على مختلف ميادين العلوم الإنسانية والاجتماعية، خاصة في مجال الدراسات الإعلامية

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

والاتصالية. إذ تثير هذه التّحولات أسئلة محورية حول مدى صلاحية النماذج النظرية التقليدية في تفسير الظواهر الاجتماعية والإعلامية في ظل طوفان البيانات الضخمة وأدوات التحليل الرقمي الحديثة. من جهة أخرى، تقدم هذه الدراسة فحصا نقديا لمقولة "أفول النظرية" التي طرحها العديد من الباحثين، مثل كريس أندرسون، وتداعياتها على ممارسات البحث العلمي في مجال العلوم الاجتماعية والإعلامية.

تسعى هذه الورقة البحثية إلى:

- استكشاف السّياقات التي تروج لفكرة أفول النّظرية، مع التركيز على تأثير التكنولوجيات الرقمية والبيانات الضخمة في هذا السّياق.
- تبيان أن الخطابات والرؤى التي تتنبأ بأفول النظرية غالبا ما تحمل طابعاً إيديولوجيا أكثر من كونه طابعاً علميا، مما يستدعي نقدًا لهذه التصورات.
- ضرورة إعادة التّفكير في فلسفة البحث والإطار المفاهيمي والمعرفي المستخدم في مجالات الإعلام والاتصال، وكذلك في العلوم الاجتماعية بشكل عام.
- الدعوة لتطوير مقاربات بحثية مبتكرة تتماشى مع التّحولات السريعة في البيئة التّكنولوجية والإعلامية المعاصرة.

توظف الورقة المنهج التّحليلي، القائم على تحليل الظواهر ومكوناتها بطريقة منهجية وعميقة واستخلاص النتائج بناء على التحليل المنطقي والدقيق، لفهم كيفية تأثير التّحول الرّقمي على الدراسات الإعلامية والاتصالية، وتحليل تأثير هذه التّحولات على تطور المعرفة والنظريات في هذا المجال.

2- التّنظير، والنّظرية والتّجريد: في البحث عن نظام رمزي فاعل

لا يعتبر مقال أندرسون الذي أشرنا إليه سابقا هو الأول من نوعه في الإعلان عن أفول النّظرية، كما أنه لن يكون الأخير، على الأرجح، في هذا السّياق. ويذهب البعض إلى القول بأن الغموض المتأصّل في مصطلح النّظرية ذاته مسؤول، لو بشكل جزئي على الأقل، عن الصّورة الذهنية "السّيئة" التي يرتبط بالمفهوم غالبا. فعلى الرغم من أن أصل المصطلح واضح، إذ أنه مشتق من الكلمة اليونانية القديمة ***theōria***، والتي تعني التّأمل والتّدبر والتّبصر، فإن السّياقات التي يستخدم فيها المصطلح، غالبا، ما تجعله أقل وضوحا. فقد ذكر مارتن هايدغر ***Martin Heidegger*** في مقال له بعنوان "العلم والتّأمل"، عند تطرّقه إلى أصل مصطلح النّظرية إلى أن "كلمة "نظرية" مشتق من الفعل اليوناني ***theōrein***. والاسم الذي ينتمي إليها هو ***theōria***. وما يميّز هذه الكلمات هو غموض وفخامة دلالتها. فالفعل ***theōrein*** نشأ من اندماج كلمتين جذريتين، ***thea*** و ***horaō***. ف ***thea*** تحيل إلى المظهر الخارجي، أي المظهر الذي يُظهر فيه الشيء نفسه، بمعنى آخر المظهر الخارجي الذي يقدم فيه الشيء نفسه.

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

يسمي أفلاطون هذا الجانب ***eídos***. إن رؤية هذا الجانب، أي ***eidenai***، يعني معرفة [***wissen***]. الكلمة الجذرية الثانية في ***theōrein***، وهي ***horaō***، تعني أن تنظر إلى شيء ما بانتباه، أن تنظر إليه بدقة. ومن ثَمَّ يتّضح أن ***theōrein*** هي ***thean horan***، أي النظر بانتباه إلى المظهر الخارجي الذي يصبح فيه ما هو موجود مرئيا والبقاء معه من خلال هذا التوق-الابصار"(***Heidegger, 1977, p. 163***). ونلاحظ في الواقع أن هناك تباينا بين الاستخدامات التّقنية والشائعة بين العامّة للنّظرية. فمن الناحية العلمية، ترتبط دقة أي نظرّية بقدرتها على التّعميم. أما في الخطابات العامّة، فغالبا ما تحيل عبارة أن "فلانا لديه نظرية" حول موضوع ما إلى أنه يملك تخمينا "دقيقا" أو حدسا "محظوظا" حول هذا الموضوع. هذا التّباين في الاستخدامات مثير للاهتمام من الناحية العلمية، لأنه يسلط الضّوء، في الحالتين، على كيف أن الهدف التّأملي والشامل في نفس الوقت للجهد النّظري هو الذي يسبّب، على ما يبدو، عدم الرّضا أو النّفور.

ففي كثير من الأحيان يُفهم التّنظير على أنه الابتعاد عن الواقع الذي كان من المفترض أن تحيل إليه النّظرية أو على الأقل أن تتخذه مرجعا لها. ونجد أن هذه الرؤية، ذات الطّبيعة الكاريكاتورية إلى حد ما لنشاط المنظِّر، تعني أن انخراطه في إنتاج النّظرية يعني رفضه المشاركة في العالم، واختيار حياة ذهنية لا تشبه حياة العالم الذي يعيش فيه إلا قليلا. ومن ثَمَّ فإن دعوة البعض إلى نهاية النّظرية، أو رفض الانخراط في العمل النّظري، غالبا ما يتم النظر إليها على أنها محاولة للاحتجاج على هذا الانفصال، حيث يُنظر إلى العمل الإمبريقي أو التّجريبي على أنه أكثر واقعية وارتباطا بالواقع، وأن صنع "الأشياء" أكثر صدقا ومصداقية من مجرد التّفكير فيها.

يمكن العودة في هذا السّياق، ومن باب الحرص على وضوح الرؤية، إلى التّمييز الذي يقيمه فريدريك جيمسون ***Fredric Jameson*** بين النّظرية والفلسفة. فالفلسفة بالنسبة له "مسكونة دائما بحلم نظام مستقل وبسيط ومكثّف ذاتيا، وتحكمه مجموعة من المفاهيم المتشابكة ضمن نسقها الخاص". أما النّظرية "فليس لها منافع خاصة لأنها لا تطالب أبدا بنظام مطلق، وصياغة غير أيديولوجية لنفسها و"لحقائقها"؛ فهي دائما ما تكون متواطئة مع اللغة الحالية، ولديها مهمة واحدة لا تنتهي أبدا، وتتمثّل في تقويض الفلسفة في حد ذاتها، والكشف عن العبارات والافتراضات الإيجابية من جميع الأنواع" (***Jameson, 2009, p. 59***). يتجلى هذا التّمييز الذي يشير إليه جيمسون في الجهود الفكرية لما بعد البنيوية، حيث صاحب تحدّيها للأشكال المؤسّسية والأيديولوجية للمعرفة اهتماما خاصا بالجوانب المادية والجينيالوجية والأقل حضورا (الأقلية) للفكر والعناية بها. فعند النظر إلى دور البحث النّظري في الثقافة التّكنولوجية المعاصرة، فإنه من الضّروري الالتفات إلى مثل هذه المناقشات والاعتراف بها. ومن ثَمَّ يتّضح أن خطابات "نهاية النّظرية" يجب أن توضع ضمن السّياقات الأوسع للانتقادات القديمة للعقلانية والمركزية المرجعية. عموما، فقد أعلنت ما بعد الحداثة، وذلك قبل فترة طويلة من مقال أندرسون، وإن بدرجات متفاوتة في الدرجة والهدف، عن الانهيار الوشيك لكل الخطابات المركزية، والسرديات

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

الكبرى، واللغات الواصفة، وألقت بظلال من الشك العميق حول أنماط التّفكير المركزية الغربية والتي تلبس لباس الكونية.

ليس هدفنا في هذه الورقة البحثية تتبّع التّعارض ما بعد الحداثي بين الفلسفة والنّظرية من منظور التّناظر بين العقلاني والعالمي، أو النّسبي والخاص، إذ من الصعب حصر هذا الموضوع الواسع في هذه المساحة. لذا فالأولى مقاربته وذلك بالتركيز على الأهم، أي البحث عن مساحات الالتقاء والتّقاطع بين الفلسفة والنّظرية بدل الاختلافات بينهما. ومن ثَمّ فمن الأفضل تجاوز التّمايز الذي يقيمه جيمسون بين المفارقة التي تطبع الفلسفة والمحايثة التي تسم النّظرية، والتركيز على العلاقة بين الجهد النّظري بشكل عام، بما في ذلك الفلسفة، من ناحية، ومفهوم التّجريد وما يرتبط به من أنشطة من ناحية أخرى. ففي حين أن الفلسفة كلها تدور، إلى حد كبير، حول التّنظير، فإنه لا يمكن التّسليم بأن كل التّنظير أو النّظرية فلسفة؛ ذلك أن التّنظير ينطوي بالضرورة على التّجريد. ومع ذلك، يمكن القول إن قدرة أي جهد نظري، سواء كان فلسفيا أو غير فلسفي، على التّجريد هي التي تظل، إن لم يكن مفارقة، فهي على الأقل "ترنسندنتالية أي متعالية" (**سعيد، 2004، ص. 102**).

وعليه، نقترح في هذه الورقة البحثية ومن منطلق الحرص على مقاربة ماهية النّظرية في القرن الحادي والعشرين، أو ما يمكن أن يتّخذه شكل الأفول الذي يردّده الكثيرون، النّظر في الطّرق التي غالبا ما يُفهم بها فعل التّنظير، سواء على المستوى الأكاديمي أو الشعبي، من حيث أن فعل التّنظير يحيل إلى نسق قائم على التّجريد. فقد يكون هذا النّسق مغلقا ومطلقا، أو مفتوحا ونسبيا، أو لا هذا ولا ذاك، ومع ذلك، فإنه ينطوي على درجة من البعد النّظري عن الواقع الذي يُفترض أن يصفه هذا النّسق في المقام الأول. وهذه المسافة هي التي غالبا ما ولّدت نفورا من الجهد النّظري لدى كثير من الطلبة في الجامعات مثلا. لذا من المهم الكشف عن مفهوم غير دقيق مرتبط بهذه المسافة؛ بمعنى إذا كان الّتنظير هو التّجريد انطلاقا من الملاحظة، فإن التّجريد أو التّأمل هو بدوره انفصال أو فك ارتباط بالواقع والحقائق. والحال، كما سنوضّح ذلك، أن التّجريد ليس شكلا من اشكال التّأمل الذي يسعى إلى مفارقة الواقع أو الانفصال عنه، بل إنه في الحقيقة جزء جوهري منه، وجزء أيضا من كيفية معايشتنا له.

3- النّظرية التّقليدية والنّظرية النّقدية ولحظة المسافة النّقدية

يسعفنا في هذا السّياق الاسترشاد بتمييز قديم لكنه ما يزال صالحا بين النّظرية التّقليدية من جهة، والنظرية النّقدية من جهة أخرى. وبالطبع فنحن نستحضر هنا ماكس هوركهايمر ***Max Horkheimer***، باعتباره أول من قام بهذا التّمييز ووضعه كحجر الزّاوية للمشروع الفكري لمدرسة فرانكفورت (**بوتومور، 2004**). فقد عرّف هوركهايمر، في مقالته الصادرة سنة 1937، النّظرية بأنها "مجموعة من القضايا المتعلّقة بميدان معرفي

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

محدّد، والتي يؤمن انسجامها بحكم كون جميع القضايا تستنبط منطقيا من البعض منها" (**هوركهايمر، 1990، ص. 5**). ويتمثّل الهدف من النّظرية في شرح وتفسير الحقائق بشكل منهجي وذلك من خلال بنى مفاهيمية. وفي هذا الصدد، فإن "مصداقيّتها بالنسبة للواقع تقتضي أن تكون القضايا المستنبطة من تلك المبادئ مطابقة للأحداث والمعطيات الواقعية؛ أما إذا ظهرت، على العكس من ذلك، تناقضات بين التّجربة والنّظرية، فلا بد من مراجعة إحداهما: إما أن الملاحظة كانت مختلّة، وإما أن المبادئ النّظرية هي التي تنطوي على خطأ ما." (**هوركهايمر، 1990، ص. 5**). ويكشف هوركهايمر في نفس المقالة عن نقاط الضّعف في هذه المقاربة وتعريف النّظرية. كما يرى أن ما يسمّيه "النّظرية التّقليدية" يستخدم مفاهيم وأنماط تفكير غير مسلّم بها لاختبار الفرضيّات. ويحاجج بأن العدّة المفاهيمية لـ"النّظرية التّقليدية" هي بالفعل مفيدة لأنواع معيّنة من المعرفة التي تبحث بالفعل عن نوع معين من النّتائج. وبهذا المعنى، فإن النّظرية التّقليدية لا تعترف بأن "العلاقة بين الفرضيّات ومعطيات الواقع لا تقوم... في رأس العلماء بل في الصّناعة"(**هوركهايمر، 1990، ص. 15**). وبعبارة أخرى، فإن النّظرية التّقليدية والنّظرية بشكل عام تغفل أن العلم يعمل دائمًا "في سياق سيرورات اجتماعية حقيقية" (**هوركهايمر، 1990، ص. 15**)، ووفقًا للاعتبارات التي تحكم هذه الأخيرة. ومن خلال عدم الاعتراف ببعدها التاريخي، تنتهي النّظرية التّقليدية إلى تكريس الافتراضات الأيديولوجية للمجتمع الذي تنتمي إليه. وتجاوزا للنّظرية التّقليدية، يقترح هوركهايمر "النّظرية النّقدية" باعتبارها نظرية تحرّرية للمجتمع، والتي "يغلب عليها هاجس وضع نظام مطابق للعقل (**هوركهايمر، 1990، ص. 19**)، والتي يكون هدفها، على النقيض من ذلك، تقييم الشبكة العلائقية للفرد في علاقاته مع المجتمع في كليته ومع الطبيعة أيضا.

ليس من هدفنا هنا أن نفصّل القول في خصوصيات النّظرية النّقدية، فذلك أمر يتجاوز هدف هذه الورقة البحثية. لكن يكفي أن نشير هنا إلى أن الحجّة التي يأخذ بها هوركهايمر مثيرة للاهتمام في سياق هذه الورقة البحثية لأنها تساعدنا على إبراز كيف أن النّظرية وفعل الّتنظير ليست بالضرورة عمليات تهدف إلى تجاهل الواقع أو إنكاره، ولكنهما، على العكس من ذلك، منشغلين بكيفية عيش الأفراد في العالم، وكيف يمكنهم تجنّب الانغماس فيه بحيث يفقدون أي منظور نقدي في علاقتهم به، على اعتبار "أن التّنظير ينتمي إلى سياق الاكتشاف، بينما النّظرية تنتمي إلى سياق التّبرير... (حيث) إن الفكرة الأساسية من وراء هذا التّمييز هي أن هناك لحظة فارقة في بحثك حينما تطور تبصرك الأساسي. لكنك لا تستطيع تقديم هذا التّبصر بالشكل الذي يحدث فيه، كونه حدسيا جدا وغير مبلور بالنسبة إلى هذا (أي لـ"سياق الاكتشاف". وحتى يكون هذا التبصر مقبولا لدى المجتمع العلمي، يجب أن يترجم إلى لغة مختلفة، غالبا في شكل فرضيات مقرونة ببيانات "سياق التّبرير" (**سويدبيرغ، 2017، ص. 167-168**). لذا فمن المناسب التّطرق إلى التّمييز الذي يقيمه هوركهايمر بين النّظريتين التّقليدية والنّقدية. ومرد ذلك أن النّظرية التّقليدية تكتفي بالعمل في إطار اجتماعي قائم، بينما تتوقّف النّظرية النّقدية عند خصائص

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

ذلك الإطار بهدف تغييره. وبهذا المعنى، فإن تبنّي النّظرية في صيغتها النّقدية، أو اعتماد مسافة نقدية، ينطوي على تجاوز مجرد ملاحظة معطى معين، والدخول في علاقة تأمل نقدي معه. وهذا التّأمل النّقدي يساوي، بدوره، إدراك الذّات على أنها مختلفة عن موضوع دراستها، لكنها مع ذلك لا تنفصل عنه.

من المفيد هنا أيضا وضع هذه الاعتبارات في سياق النّقد الشّديد الذي وجهته مدرسة فرانكفورت لـ "التّفكير الوضعي". وينسب المذهب الوضعي، الذي تم تطويره في منتصف القرن التاسع عشر، إلى عالم الاجتماع والفيلسوف الفرنسي أوغست كونت. ويرى هذا المذهب أن المعرفة الحقيقيّة أو الصحيحة أو "الإيجابية" يجب أن تعتمد على القياس الكمّي للتّجربة الحسّية. فالوضعيون يعتبرون أن كل الأشياء قابلة للقياس، وكل المعرفة موضوعية. وهو ما جعل مدرسة فرانكفورت ترى أن الوضعية تمثل "اتجاها نحو أقنمة (من أقنوم) العلم..." (***Horkheimer, 1947, p. 40***)، أي الجوهر والأصل؛ وهو "أحد مبادئ العالم الثّلاثة الأولى وهي: الواحد، والعقل، والنّفس الكُلِّيّة (عند أفلوطين)" (المعاني، د.ت). وقد اعترض بعض أقطاب المدرسة مثل ثيودور أدورنو ***Theodor Adorno*** وماكس هوركهايمر ***Max Horkheimer*** على فكرة النظرية الخالية من القيمة، وفنّدوا مزاعم موضوعية العلوم الوضعية بشكل عام، والالتزامات الابستمولوجية لـ "الوضعية المنطقيّة" بشكل أكثر تحديدا، حيث تمثّل هذه الأخيرة النسخة العقلانية للوضعية التي تطوّرت في أوائل القرن العشرين، والتي دافعت عن اختزال كل المعرفة في مقولات منطقية.

وبالنسبة للمنظّرين النّقديين، فقد جسّدت الوضعية نمطا تقليديا للفكر، والذي يرى العالم من خلال فئات ثابتة، ولا يهتم كثيرا بالسياقات والخصوصيات والعوارض التي تطبع التاريخ. علاوة على ذلك، وضمن المقاربة التي تتبنّاها هذه الورقة البحثية، فقد عابت مدرسة فرانكفورت على الوضعية تركيزها العلمي على الحقيقة الخالصة، وانتقدت تجاهلها للأسباب الذاتية، أي اسقاطها لكيفية تجلي أو ظهور هذه الحقائق الخالصة في المجتمع أو كممارسة من ممارسات العقل البشري. بعبارة أخرى، ترى مدرسة فرانكفورت أن الوضعية تقبل الحقائق التّجريبية دون تمحيص، وبطريقة تُغلّب البعد الأداتي الذرائعي، بينما تستبعد إمكانية معالجة أي من البنى الإنسانية والاجتماعية السّياقية التي تشكّل هذه الحقائق. ومن ثَمَّ، يُنظر إلى الامتثالية الوضعية للحقائق على أنها نوع من الدّوغما.

لقد تحدّت الاجتهادات النّظرية لمدرسة فرانكفورت بشكل واضح الافتراض القائل بأن البيانات يمكن أن تتحدّث عن نفسها. إذ دفعت إلى ضرورة خلق مسافة تأملية من معطيات التجربة؛ أي خلق مسافة تأمّلية من شأنها أن تسمح للتّعامل مع التجربة المذكورة بطريقة أعمق وأكثر جدوى، وآليات فاعلة تتجاوز ما هو محدد مسبقا. ولذا فعلى الرغم من أن الفكر النّقدي الذي اقترحته مدرسة فرانكفورت ليس ممارسة تطبيقية ***praxis***،

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

إلا أنه لم يكن كذلك مجرد تأمّل مفارق للواقع؛ وهو ما كان أدورنو على وجه الخصوص حريصا على التّأكيد عليه (*Adorno*, 2010). إن التّفكير يؤثر بالفعل في العالم، ولا ينبغي التّخلص من التّجريد، بل يجب فهمه، ربما من خلال إنتاج المزيد من التّجريد الذي لا يتطابق بالضرورة مع "الحقائق" على الأقل من المنظور الوضعي؛ ذلك لأن الافتراض القائل بالحقيقة الخالصة هو مجرد خيال بالنسبة لمفكّري مدرسة فرانكفورت. وبناء على هذه الرؤية، فإن المسافة النّظرية عند دراسة موضوع ما ضرورية لتحاشي الوقوع في الجمود أو الثّبات، ولدمجه في البنى المفاهيمية التي يمكن أن تساهم في تفسيره دون أن تضفي عليه بعدا طبيعيا، أي جعله يظهر وكأن أصله هكذا.

4 - مآزق المعرفة دون تفكير

إذا أردنا الاسترشاد بالاجتهادات والقراءات السابقة في مجال نظريات الإعلام والاتصال، فإن ذلك يتطلّب التّوقف قليلا عند العلاقة بين هذه الأخيرة والتّجريد. وهو ما يستدعي التّطرق إلى ما يمكن أن تكون عليه طبيعة المسافة النّظرية، وما قد يستتبع ذلك إذا تبنّينا مثل هذه المسافة عند مقاربة السياق النظري للإعلام والاتصال. بداية، يجب التّأكيد على أنه إذا سلّمنا بأنه لا يوجد تصوّر واحد للنّظرية، فإنه لا يوجد أيضا فهم اجماعي لنظريات الإعلام والاتصال. علاوة على ذلك، فإذا كانت النظرية لا تحظى، في كثير من الأحيان، بمكانة متّفق عليها في الحقل الأكاديمي، فإن الأمر نفسه ينطبق، على الدراسات الإعلامية والاتصالية إذ قد يميل بعضها إلى الاستغناء عن الجانب النظري بسهولة ويسر. وهذا يعني أن التّساؤل حول ماهية النّظرية في الدّراسات الإعلامية والاتّصالية يهدف إلى التّوقف عند خصوصيتها النّظرية في علاقتها بالاجتهادات الفكرية الأخرى، مثل تلك المتعلّقة بالدراسات الثّقافية وعلم الاجتماع العلوم والتّكنولوجيا مثلا، والتي يمكن أن تفيدنا أيضا في فهم الوساطة التّكنولوجية.

للقيام بذلك، يمكن الاسترشاد بما جاء في مقالة أندرسون سالفة الذكر (*Anderson*, 2008). بداية نشير إلى أن هذه المقالة لم تكن موجّهة إلى منظّري الإعلام والاتصال، لكن الطريقة التي قد يتفاعل بها هؤلاء المنظّرون مع مضمون المقالة، يمكن أن تساعدنا في استجلاء طبيعة ونطاق وتداعيات المناقشات النظرية الإعلامية والاتصالية. يجب أن نشير بداية إلى أن حجج أندرسون حول أفول النظرية هي حجج تتعلق بتقادم المنهج العلمي، حيث إنه يستهدف في رؤيته النّقدية، بشكل واضح، منهجية العلوم النّظرية في تعارضها الواضح، من وجهة نظره، مع منهجية التّكنولوجيات التطبيقية. لا يتوقّف أندرسون عند دور التّأمل والتّدبر في العلوم الإنسانية، بل يهتم بالأحرى بدور الفرضيّات والتّجريب، ويولي أهمية كبيرة خاصة للنماذج في العلوم. وهذا لا ينفي أن مقولاته تتعلّق بهذا القدر أو ذاك بالعلوم الإنسانية، حيث إن لها تبعات يمكن الوقوف عليها في هذا السّياق.

يلاحظ أندرسون أننا نعيش "في العصر الأكثر تكميما وحضورا للقياس في التاريخ" (*Anderson*, 2008). ويذهب إلى أن هذا الوضع يتطلّب "مقاربة مختلفة تماما" للمعرفة، حيث يرى أن أسلوب عمل غوغل، مثلا، يجسّد التّحول الابستمولوجي الذي توفره الحوسبة. فغوغل لم يكن يعرف أي شيء عن الإعلان، مثلا، قبل أن

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

يصبح أكبر لاعب في هذا المجال، بل غدا كذلك من خلال استثمار بيانات أفضل وأدوات تحليلية أفضل لهذه البيانات. ومن ثَمَّ فقد أصبحت الفرضيات القابلة للاختبار شيئا من الماضي، لأن البيانات الضّخمة أحدثت نقلة نوعية من خلال تجاوز الأسباب الموضوعية أو الذاتية، والتركيز فقط على الارتباطات. ولتوضيح هذه الفكرة، يقدّم أندرسون مثالا عمليا متمثّلا في التّسلسل الجيني الذي قام به عالم التّكنولوجيا الحيّوية والوراثة الأمريكي جون كريج فنتر ***John Craig Venter*** . ويوضّح أندرسون أنه "بفضل أجهزة التّسلسل عالية السرعة وأجهزة الكمبيوتر العملاقة التي تحلّل، إحصائيا، البيانات التي تنتجها، انتقل فنتر من تسلسل الكائنات الفردية إلى تسلسل النّظم البيئية بأكملها"، واكتشف في هذه العملية "آلاف الأنواع غير المعروفة سابقا من البكتيريا وغيرها من الكائنات الحية وأنواع أخرى من أشكال الحياة". ومع ذلك، فإن فنتر ليس داروين العصر الحديث، لأنه ليس عالقا "في الطريقة القديمة لممارسة العلوم". ويؤكد أندرسون أن فنتر، على النّقيض من داروين، لا يعرف شكل وسلوك هذه الأنواع الجديدة. فهو لا يستطيع إخبارنا أي شيء تقريبا عن الأنواع التي وجدها، حيث إن كل ما يملكه هو "ومضات إحصائية"، ساعدته، مع ذلك، على تطوير علم الأحياء "أكثر من أي شخص آخر في جيله" (***Anderson***, 2008).

بالنسبة لأندرسون، يوضّح هذا المثال بأنّه يمكننا "التوقف عن البحث عن نماذج"، لأننا نستطيع "ضخ أرقام في أكبر وأضخم وحدات للحوسبة لم يعرفها العالم من قبل على الإطلاق، والسماح للخوارزميات الإحصائية بالعثور على أنماط لا يستطيع العلم العثور عليها". وتشير هذه التّعليقات إلى المعنى الذي تضمّنته مقالة أندرسون والمتمثّل في بروز منظور يرحبّ باحتمال أن يصبح عالمنا المعاصر بمثابة "غرفة صينية". ففي التّجربة الفكرية الشّهيرة لفيلسوف اللغة الأمريكي جون سيرل ***John Searle***، يتم وضع شخص لا يتحدث إلا اللغة الإنجليزية في غرفة ويتم إعطاؤه مجموعات من الكتابات الصّينية، بالإضافة إلى قواعد لربط عناصرها مع بعضها البعض. ويرى سيرل أن المتحدث باللغة الإنجليزية يمكن أن يصبح "ممتازا في اتباع التّعليمات للتّحكم في الرموز الصّينية"، بحيث أن "استجاباته لا يمكن تمييزها على الإطلاق عن إجابات الناطقين باللغة الصينية بالنسبة لشخص موجود خارج الغرفة" (***Searle***, 1987, p. 68). مع ذلك، فإن هذا الشّخص لا يتكلم اللغة حقا، ولا يفهمها، إذ أن كل ما يقوم به لا يتجاوز الربط بين الرموز، دون اهتمام كبير بالمعنى.

استخدم سيرل هذه التّجربة الفّكرية للتّدليل على أن برامج الذّكاء الاصطناعي قد تحتوي على بنى نحوية، لكنها تفتقر إلى الدّلالات، وبذلك فقد تقدّم إجابات صحيحة ولكنها لا تزال تفتقر إلى الفهم. مع ذلك، فعندما يتعلّق الأمر بالرؤية الابستمولوجية القائلة باحتمال نهاية النّظرية، عبر الأتمتة الحاسوبية، فإن هذا الأمر لا يبدو مهمّا بالنسبة لأندرسون، الذي انتقد بشدة دور النّماذج في العلم لأنها تشكّل تجريدا بناء على الطبيعة

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

الآنية للارتباطات التي توفّرها العمليّات الحاسوبية. فالنماذج في العلوم، كما تجادل كل من موريسون ومورجان ***Morrison*** و ***Morgan*** ، تعتبر وسطاء تحيل على "بعض جوانب العالم، أو بعض جوانب نظرياتنا حول العالم، أو كليهما معا في الوقت نفسه" (***Morrison & Morgan*, 1999, p. 11**). وعلى هذا فهي تمثّل، من وجهة نظر اندرسون، بقايا بعض أنماط التّفكير ذي النزعة الانسانية والتي يجب على المرء التّخلص منها.

ولعل الأمر الأكثر إثارة، وربما عمقا، في هذا السّياق ما ذهب إليه هو الفيلسوف برنارد ستيغلر ***Bernard Stiegler*** عندما وصف هذه الرؤية الإبستيمية\المعرفية بأنها شكل من أشكال المعرفة دون تفكير. فقد اعتبر أن " "المعرفة" الآلية التي احتفى بها أندرسون لم تعد بحاجة إلى التفكير. ففي عصر التّطبيق الخوارزمي للرّياضيات التّطبيقية في الآلات الحاسوبية، لم تعد هناك حاجة للتّفكير؛ حيث غدا التّفكير متجسّدا في شكل آلات خوارزمية تتحكّم في أنظمة التقاط البيانات، وبذلك تجعل التّفكير متجاوزا أو عفا عليه الزمن" (***Stiegler*, 2016, p. 117-178**). وهذا الوصف بقدر ما هو حاد واستفزازي من الناحية المفاهيمية فإنه مثير للقلق، لأنه يعني أن نهاية النّظرية، كما أعلنها أندرسون بشكل احتفائي قد تعني نهاية الفهم، أي نهاية الملكات مثل المعرفة والقدرة على الفصل في الأمور. وهذا التّفسير الذي يتبنّاه أندرسون للممارسات العلمية التّكنولوجية الحالية يمكن اعتباره شكلا من أشكال الوضعية المتشدّدة، وذلك بسبب ثقته الكاملة في البيانات. ومع ذلك، فإن رؤيته تتحدّى أيضا الفلسفة الوضعيّة، باعتبارها تتجاهل معايير التّحقق أو الدحض التي تقوم عليها العلوم والتي تعتبر أساسية في المعرفة الوضعيّة. أضف إلى ذلك أن قراءة أندرسون لنهاية النظرية تحمل طابعا تجريبيا واضحا، لكنها تحتفي في نفس الوقت بأداة الملاحظة التّكنولوجية العلمية والحاسوب تحديدا باعتبارها أفضل الأدوات. وهو إلى جانب ذلك يرفض الامبريقية\التجريبية بمعنى ما من خلال إنكار فائدة المعرفة العلمية لأي ملاحظ، وبذلك فإنه يُفرغ البحث الامبريقي\التجريبي نفسه، في نهاية المطاف، من مصدر قوته الاستدلالية.

5 - نظريات الإعلام والاتّصال وسياقات التّحولات التّكنولوجية

إذا فالسّؤال الذي يحضر بقوة في سياقنا هذا، هو ما الذي يمكن أن يفعله منظّرو الميديا عندما يجدون أنفسهم في مواجهة احتمال وجود معرفة دون فكر؟ والإجابة قد تكون "بديهية"، وهي أنه يجب عليهم الدّفاع عن ضرورة حضور الفكر في المعرفة حتى بعد التّحول التّكنولوجي الذي تعرفه الثقافة والمجتمع. فإذا كان العمل بشكل نظري يعني العمل مع التركيز على الفهم كهدف، فإنه "يجب على المرء التّمسك بالنّظرية، خاصة في ظل الإكراه العام القائم على التّطبيق العملي في عالم يتّسم بغلبة الوظيفي والبراغماتي"، كما يذهب إلى ذلك أدورنو (***Adorno*, 2010, p. 273**). وهذا الأمر ينطبق أكثر مما ينطبق على نظريات الإعلام والاتصال على وجه الخصوص، ذلك إلى الحاجة إليها والتّمسك بها قد ازدادت بسبب الإكراهات الحالية التي تمارسها البيانات الضخمة والمحتفون بها الداعون إلى إسقاط التأويل وجعلها تحل محلّه (***Masso, Männiste & Siibak*,**

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

2020). وإذا كنا نسلّم بأنه ليست كل نظرية من نظريات الإعلام والاتصال هي "نظرية إعلام واتصال جديدة"، وليس كل هذا الحقل المعرفي منشغل بشكل واضح بالرقميات، فإن الدراسات الإعلامية والاتصالية، في أبعادها النظرية، تجد نفسها في وضع متميّز يمكّنها من فهم الآثار والتّبعات الابستمولوجية للتّكنولوجيات الحاسوبية.

بالتوازي مع ذلك، فإن نظريات الإعلام والاتصال يمكن أن تنفتح على ما يطلق عليه عادة فلسفة الإعلام وتتداخل معها أيضا، حيث يشير هذا المصطلح في الأوساط الأكاديمية، إلى سياق مخصوص وهو السياق الألماني الذي انبثقت منه (***Vargoz***, 2018). إذ يشير إلى تلك الجهود العلمية التي حاولت استحداث نظام قادر على إعادة التّفكير في "الوسيط\الحامل" في علاقته بالذات الإنسانية وغيرها من الذوات الأخرى غير الإنسانية كما يذهب إلى ذلك برونو لاتور ***Bruno Latour*** (***Debaise***, 2012). مع ذلك، يمكن أيضا تكييف واستملاك مصطلح فلسفة الإعلام واستخدامه على نطاق أوسع، وذلك بهدف الإشارة إلى الاجتهادات المعرفية النظرية متعدد الأوجه والمتعلّقة بأنماط الخبرة والوجود التي تتولّد عن الأنظمة الإعلامية بشكل عام، أو تلك الموجودة في علاقتها بهذه الأنظمة. ونحن نستخدم هنا مصطلح فسلفة الإعلام بهذا المعنى، مع الاقرار أيضا بالانفصال الذي قد يشير إليه في علاقته بالأجندة البحثية لدراسات الاتصال والمتمحورة حول سيرورات التواصل والسلوك البشري وأنماط الاتصال والتفاعلات الاجتماعية، الخ، والتي تبنّتها الدراسات الإعلامية، جزئيا، لأسباب تاريخية.

إن فلسفة الإعلام، بالمعنى المقترح هنا، لا تتعارض مع نظريات الإعلام والاتصال، ولكنها تتكامل معها وتؤازرها في السعي إلى خلق مفاهيم ملائمة لمقاربة أفضل السبل التي يمكن الأخذ بها في مجال التّصورات والسّلوكيات والفكر في عالم يتسم بدرجة عالية من الوساطة التّكنولوجية. وبالعودة إلى ما تمت الإشارة إليه سابقا بأن فعل التّنظير يمكن فهمه من منطلق تجريدي، يمكن أن نضيف هنا أن العلاقة بين الجهد النّظري الإعلامي والتّجريد هي علاقة تساهم في صنع المفهوم. وبعبارة أخرى، فإن أحد أهم ما تريد أن تخلص إليه نظريات الإعلام والاتصال، ارتباطا بأهدافها، هو "المفْهَمة" (**اعراب، 2013، ص. 156**)، باعتبارها عملية إبداع مفاهيم ضمن سيرورات معيّنة. ويتعلّق الأمر هنا بإنشاء بُنى مفاهيمية باستخدام وسيط تجريدي، وشرح وتفسير الحقائق من خلال هذه البنى. وهنا تظهر أهمية المسافة النظرية والتأملية في الانتقال من المفْهَمة إلى الأشْكَلة، مع ضرورة استحضار الفرق بين المفهوم والمشكلة. إذ يرى دولوز ***Deleuze*** وغوتاري ***Guattari*** أن "المفاهيم مرتبطة بمشاكل بحيث لا يمكن أن يكون لها معنى في غيابها، والتي لا يمكن بدورها عزلها أو فهمها إلا مع ظهور حلول لها" (***Deleuze & Guattari***, 2005, p. 22). ومن ثم فإن المفْهَمة والأشْكَلة متلازمان لأن مفاهيم الفلسفة والنظرية تهدف، على حد سواء، إلى معالجة مشاكل نواجهها كثقافة ومجتمع، أو كذوات مفكِّرة.

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

بالنسبة لدولوز، فإن حرية تحديد المشكلة وصياغتها هي الحرية التي تميّز طبيعة ومصير الفلسفة والنظرية. هذه الحجة الدولوزية (نسبة إلى دولوز)، والمستمدة من برغسون ***Bergson***، هي موقف غير عادي في تاريخ الفكر، والذي يمكن القول إنه يفضّل النظر إلى الفلسفة والنظرية كفضاء فكري يمكِّن من العثور على الحلول وليس المشاكل. ومع ذلك، يرى دولوز أن الأسئلة التي قد يطرحها العمل الفكري أكثر أهمية من إجاباتها. فهو يرى "إن المشكلة هي التي توجّه الحلول وتتحكّم فيها وتُولّدها"، رغم أن "هذه الحلول لا تشبه شروط المشكلة" (***Deleuze***, **1968, p. 274**).

تأسيا بهذا المنظور الدولوزي، يمكن القول بأن نظريات الإعلام والاتصال وفلسفة الإعلام أيضا توفّران مساحة فكرية للتّفكير في الأرقام أو الحساب على وجه التّحديد كمشكلة تحتاج إلى مفاهيم ملائمة لاستيعابها. ومن ثَمَّ يمكن لنظريات الإعلام والاتصال أن تفكّر في الأرقام وتبعاتها المعرفية؛ لأنها لا تنظر إلى التّقنيات الرّقمية كوسائل أو أدوات لمعرفة المزيد، ولكن كموضوعات للدّراسة يجب أن نعرف عنها المزيد. ومن وجهة النظر هذه، فإن ما يمكن أن تشرحه الميديا الحاسوبية[1] ليس مهما جدا، بقدر أهمية شرح ماهية هذه الميديا نفسها. علاوة على ذلك، فإن الرؤية الدولوزية حول الأشْكَلة يمكن أن تقدم حجّة إضافية تقوم على أن تبني موقفا نظريا ما لا يعني الانسحاب من العالم، بل هو شكل من أشكال الالتزام تجاه هذا العالم. يمكن بعد ذلك التّوسع في موقف دولوز بطريقة تتوافق مع منظور فكري مختلف تماما، وهو منظور مدرسة فرانكفورت، الذي تمت مناقشته سابقا، وذلك بهدف الاستمرار في القول بأن نظريات الإعلام والاتّصال يمكنها أن تجعل الفكر جزءا من عملية توليد المعرفة، تأسيا بحجة ستيغلر التي أشرنا إليها سابقا، بعد التّحول الرقمي، لأنها تستطيع التفكير، على وجه الّتحديد، في تحوّلات الّتفكير من خلال "تكنولوجيات التفكير".

من الاجتهادات الثّرية الأخرى التي يمكن أن تساعدنا في تمثّل وإبراز العلاقة بين النظرية والتجريد كعلاقة أساسية في تحديد الغايات التي تسعى إليها المشاريع النّظرية، ما يذهب إليه عالم الرياضيات والفيلسوف ألفريد نورث وايتهيد ***Alfred North Whitehead***، في كتابه السيرورة والواقع، والذي نشره قبل أقل من عقدين من تأليف أدورنو ***Adorno*** وهوركهايمر ***Horkheimer*** لكتابهما جدل التنوير. وقد تضمّن الكتاب قراءات عميقة ومبتكرة ودوافع قوية لرفض تأييد الاتجاهات الوضعية في عصره، وذلك من منطلقات مختلفة عن تلك التي أخذت بها مدرسة فرنكفورت عموما.

لا يعتبر عمل وايتهيد نظرية نقدية للمجتمع، بل يمثّل جهدا كوزمولوجيا\كونيا لبناء انطولوجيا\كينونة يمكن أن تعمل في مقابل الرياضيات والعلوم في القرن العشرين. وقد اختلف وايتهيد بشدة، مثله في ذلك مثل

[1] يجمع هذا المصطلح بين علوم الحاسوب والتصميم والاتّصال لإبداع منتجات تقنية مبتكرة في مجالات الوسائط الرّقمية وبرمجيات الهندسة وتصميم الألعاب والفيديو والأفلام والرّسوم البيانيّة وغيرها.

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

مفكري مدرسة فرانكفورت، مع الادّعاء القائل بإمكانية وجود شيء مثل "الحقيقة الخام" (***Whitehead***, 1978, **p. 14**). ويؤكد وايتهيد بقوة على أن البيانات ليست الوقائع، ولكنها سجلاّت الوقائع القابلة للقياس. وأن ما احتفت به "المادّية العلمية" في عصره، أي الوضعيّة، باعتباره موضوعا هو في الواقع تجريد ناتج عن آنية التجربة. والخطأ الذي تقع فيه الوضعيّة هو أنها تنظر إلى النواتج الآنية للتّجارب على أنها مجموعة حقائق محايدة تحتاج فقط إلى تفسير. فالفكر أو أي اعتبار عقلي، بالنسبة لوايتهيد، ليس خارجا عن الحقائق، ولكنه جزء منها.

لكن كيف يمكن ربط هذه الاعتبارات بما يهمّنا هنا؟ بداية، يتيح لنا وايتهيد فهم الدّور المحوري الذي تلعبه إجراءات التّجريد في كل تجربة. بل إن الأمر الأكثر إثارة للاهتمام هنا هو أن حجة وايتهيد هي حجة ابستمولوجية وأنطولوجية في نفس الوقت، بمعنى أن تكون موجودا يعني أن تكون بالفعل قادرا على التّجريد. ومن ثَمَّ يمكن للمنظّرين الاتكاء على حجة وايتهيد كلما واجهوا "تهمة" المبالغة في التجريد، والتي تقوم على أساس أنه لا يوجد طريق آخر غير التّجريد للوصول إلى الحقائق. فالتّجريد، حسب هذه الرؤية، هو الذي يسمح لنا بالولوج إلى الواقع، وبذلك فإن التّجريد لا يعني الابتعاد عن الواقع أو مفارقته، بل الدخول فيه وتشكيله على ضوء وقائعه.

تتيح لنا رؤية وايتهيد الانتقال من النّقد إلى التّأمل، أي تسليط الضوء على الجانب التّأملي لما يمكن أن تفعله النّظرية. وفي هذا الصدد، يمكن القول إن مقاربة وايتهيد التي ترى أن التّجريد هو أسلوب أساسي للتّجربة يمكن ربطها بنظريات الإعلام والاتصال ضمن هذه الرؤية. ولذا يمكن التأكيد على أن تجريدات هذه النظريات تتناول في النهاية تجريدا آخر، وهو ذلك المتعلق بالتّكنولوجيا في سياقنا هذا. وهو بدوره تجريد يجب النظر إليه باعتباره يقع ضمن العديد من التجريدات الأخرى، كاللغة مثلا. وبهذا المعنى، لا يصبح التّجريد طريقة للبحث فحسب، بل يصبح هو ذاته موضوعا أو جزءا من موضوع البحث. وهو ما ينقلنا، بعد ذلك، من الابستمولوجيا إلى الانطولوجيا وذلك من خلال التّأكيد على أن التّجريد لا يشكل فقط كيف يمكن للمرء أن يعرف في هذا العالم، ولكن أيضا كيف يمكنه أن يكون في هذا العالم. فالتّجريد ليس خارجا ومفارقا للموضوع، بل يمكن أن يوجد داخله. ومع استصحاب رؤية وايتهيد هذه، تصبح الرؤية النّظرية التي تناولناها في هذه الورقة البحثية المساحة اللازمة لظهور واقع التكنولوجيا وتطوّره، على اعتباره أن التّكنولوجيا تعتبر تجريدا إلى جانب تجريدات أخرى.

6 - خاتمة

تأسيسا على ما تقدّم، يمكن القول بأنه رغم الحضور المتعاظم للمناهج الحاسوبية في حقل الدّراسات الإعلامية والاتّصالية، حيث يتم الاحتفاء بالخوارزميات والبرمجيات، والتّحول الحاسوبي وقدرته على إحداث ثورة في العدّة المفاهيمية والمنهجية لهذا الحقل، فإن النّظرية تعني، ببساطة، خلق المعرفة الخالصة. فغالب الظّن أننا لن تجد في يوم من الأيام أحدا من إحدى الشركات العملاقة للتّكنولوجيا يدق باب أحد الباحثين، محتفيا، كرد

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

فعل على مقالة رائعة وعميقة كتبها عن ما بعد الإنسانية. مع ذلك، فإن رفع ممارسة النّظرية في هذا الحقل البحثي مكانا عليّا، كتوجّه نقدي بحت، وهو أمر ضروري للغاية هذه الأيام التي تعتمد على المخرجات، لا يجب أن ينسينا ضرورة الاجتهاد لتجسيد النّظرية بطرق خلاّقة وغير متوقّعة، حيث يمكن لهذه التّجسيدات أن تكون بمثابة حافز وإلهام لممارسة النّظرية.

فالمناهج الحاسوبية قد تتيح لنا فحص المفاهيم والمتغيّرات، في حقل الدراسات الإعلامية والاتصالية، من منظور جديد، أو بطريقة قائمة على مهارات حسابية متقدمة، تتجاوز الترميز اليدوي، وتسمح بالتقاط تدفقات الأخبار المعقدة والهجينة مثلا؛ وهو ما يسمح لنا بفهم التعقيد المتزايد للفضاءات العامة بشكل أفضل، وقياس المتغيرات التي لم تتم دراستها بشكل كاف (***Waldherr et al***. 2021).

لكن هذه المناهج نفسها تحمل معها مخاطر التّهوين أو التّقليل من قيمة المفاهيم والنّظريات، والافتقار إلى المعايير المنهجية الصّارمة. فتحليل المشاعر مثلا، حيث يتم استخدام طرق إحصائية سهلة نسبيا يفتقر إلى الإجماع العلمي حول كيفية وضع تصّور نظري للمشاعر؛ وهو ما ينطبق أيضا على الموضوعات التي يتم قياسها غالبا من خلال نمذجة الموضوع (النمذجة الإحصائية)، والقائمة على استخدام التعلم الآلي غير الخاضع للرقابة لتحديد مجموعات من الكلمات المتشابهة داخل نص ما. وبما أن الكثير من الدّراسات تركّز في كثير من الأحيان على المتغيّرات التي تفتقر إلى إطار نظري واضح أو أنها تعتمد فقط على تخصّصات أخرى دون أي تفكير في قيمتها النّظرية، فإن بعض الباحثين يخشون أن يؤدي التّحول الحاسوبي إلى إنتاج دراسات لا تساهم كثيرا في بناء النّظريات في الإعلام والاتصال، بل إن بعضهم حذّر من أن التّقليل من شأن البنى النّظرية قد يؤدّي إلى تحديد طبيعة دراسات البيانات الضّخمة في حقل الدّراسات الإعلامية والاتصالية على المدى البعيد. (***de Grove et al.***, 2020). فبعض الدّراسات تستشهد، مثلا، بنظرية التّأطير لقياس الأطر من خلال طرق آلية، في حين لا يزال من غير الواضح ما إذا كانت المتغيّرات التي يتم قياسها تتوافق مع المفاهيم النّظرية للأطر الإعلامية كما تقترحها نظرية التأطير، حيث إن أساليب البناء الآلي للأطر التي يتم تحديدها امبريقيا، غالبا ما تحمل القليل من التّشابه مع ما يحدّده حقل الدّراسات الإعلامية والاتّصالية على أنه أُطر (***Nicholls &Culpepper***, 2021).

علاوة ما تقدّم، فإن الحذر المعرفي يقتضي التّمعن في الدروس التي يمكن استخلاصها من الاحتفاءات التي صاحبت التّكنولوجيات من قبل. فمجرد انتشار أجهزة تكنولوجية أو بنية تحتية تكنولوجية متقدمة لا يفسّر بالضرورة استخداماته ودلالته المتنوّعة. فمن المغالطات التي صاحبت "التّنظير" الاحتفائي والمبكّر للإنترنت، ولاحقا شبكات التواصل الاجتماعي، افتراض أن كل لمجتمع سوف يتغيّر حتما وذلك بالنظر للطبيعة "الثورية" لهذه الفضاءات، والأهم من ذلك، أن التّغيير سيكون في نفس الاتجاه. بالتّوازي مع ذلك فإن التّنظير النّقدي تبنّي وما يزال منظورا حضرت فيه اجتهادات متنوّعة وعميقة (***Swedberg***, 2014)، وساهم في التّنوع الثّري للمناهج التي

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

تم توظيفها في حقل الدراسات الإعلامية والاتصالية. وهناك ميل هذه الأيام لتكرار بعض المغالطات التنبؤية حول أشكال وسائل الإعلام الجديدة، وخاصة شبكات التواصل الاجتماعي وأبحاث وسائل الإعلام المحمولة. فمجرد ظهور شكل أو تكنولوجيا إعلامية في كل مكان وفي نفس الوقت تقريبا، لا يجب أن يدفعنا إلى التّسليم بأن هذه لحظة ثورية من المنظور النّظري النّقدي.

7- قائمة المراجع:

اعراب، محمد. (2013). الفلسفة والتدريس بالكفايات في التعليم الثانوي والأهلي. المجلة العربية للعلوم النفسية، 39-40، 147-160. http://tinyurl.com/2s4cxtr4

المعاني. (د.ت). تعريف ومعنى أقنوم في معجم المعاني الجامع. http://tinyurl.com/wtxea339

الفواز، فواز بن حمد. (27 يونيو 2017). نهاية النظرية.. الأزمات المالية وفشل علم الاقتصاد "1". http://tinyurl.com/3kze3564

اندرسون، كريس. (06 أكتوبر 2021). نهاية النظرية: طوفان البيانات يُبلي المنهج العلمي (ترجمة نوف السعيدية). صحيفة عُمان. http://tinyurl.com/2mhdfzn9

ايت ناصر، عبد الحفيظ. (22 يوليو 2021). المثقف – السلطة – الحقيقة. قراءة في مقالة تدبير الحقيقة – م.فوكو. أنفاس نت. http://tinyurl.com/mt4hpyv

بوتومور، توم. (2004). مدرسة فرانكفورت. (ترجمة سعد هجرس). طرابلس (ليبيا): دار أويا. (نُشر العمل الأصلي باللغة بالإنجليزية سنة 1984). http://tinyurl.com/5n9be6ct

دولوز جيل. (2009). الاختلاف والتكرار. (ط1). (ترجمة وفاء شعبان). بيروت: المنظمة العربية للترجمة (نُشر العمل الأصلي باللغة الفرنسية سنة 1968).

سعيد، جلال الدين. (2004). معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية. تونس: دار الجنوب للنشر. https://shorturl.at/hxT45

سويدبيرغ، ريتشارد. (2017). قبل النظرية يأتي التنظير أو كيف نجعل العلوم الاجتماعية أكثر جاذبية (ترجمة حميد الهاشمي). عمران، 5(20)، 165-187. https://tinyurl.com/24kx67w7

هوركهايمر، ماكس. (1990). النظرية التقليدية والنظرية النقدية (ترجمة مصطفى الناوي). مراكش: عيون المقالات (نُشر العمل الأصلي باللغة الألمانية سنة 1937). https://shorturl.at/zB258

Adorno, T. W. (2010). Who's Afraid of the Ivory Tower? A Conversation with Theodor W. Adorno. In G. Richter (Eds.) Language Without Soil: Adorno and Late Philosophical Modernity (pp. 227-238). New York: Fordham University Press. https://tinyurl.com/2sxhx3fp

Anderson, C. (June 23, 2008). The End of Theory: The Data Deluge Makes the Scientific Method Obsolete. Wired. https://tinyurl.com/y5ax68z4

Debaise, D. (2012). Qu'est-ce qu'une subjectivité non-humaine ? L'héritage néo-monadologique de B. Latour. Archives de Philosophie, 75(4), 587-596. https://tinyurl.com/3x4jd9ap

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

De Grove, F., Boghe, K., & De Marez, L. (2020). (What) Can Journalism Studies Learn from Supervised Machine Learning? Journalism Studies, 21(7), 912–927. https://tinyurl.com/mrxwmvh4

Deleuze, G. (1968). Différence et repetition. Paris : Presses universitaires de France (PUF). https://tinyurl.com/y2ttmus3

Deleuze, G. & Guattari F. (2005). Qu'est-ce que la philosophie ?" Paris: les Éditions de Minuit. https://tinyurl.com/mr2k4wv6

Heidegger, M. (1977). The Question Concerning Technology and Other Essays. (W. Lovitt, Trans.). New York: Garland Publishing, INC. (Original work published 1961). https://tinyurl.com/3vn9azmr

Horkheimer, M. (1947). Eclipse of Reason. New York: Oxford University Press. https://tinyurl.com/mr2n9r3y

Jameson, F. (2009). Valences of the Dialectic. London: Verso. https://tinyurl.com/4rm7c34f

Masso, A., Männiste, M., & Siibak, A. (2020). 'End of Theory' in the Era of Big Data: Methodological Practices and Challenges in Social Media Studies. Acta Baltica Historiae et Philosophiae Scientiarum, 8(1), 33-61. http://tinyurl.com/y7uvk7ph

Morrison, M. & Morgan, M. S. (1999). Model as Mediating Instruments. In M. S Morgan & M. Morrison (Eds.) Models as Mediations. Perspectives on Natural and Social Science (pp. 10-37). Cambridge: Cambridge University Press. https://tinyurl.com/49854b58

Nicholls, T. & Culpepper, P. D. (2021). Computational identification of media frames: Strengths, weaknesses, and opportunities. Political Communication. 38(1–2), 159–181. https://tinyurl.com/yuya7fpd

Nowviskie, B. (2016). On the Origin of "Hack" and "Yack". In M. K. Gold & L.F. Klein (Eds.) Debates in the Digital Humanities 2016 (pp. 66-70). Minnesota: University of Minnesota Press. https://tinyurl.com/rtejxsxr

Scheinfeldt, T. (2012). Sunset for Ideology, Sunrise for Methodology? In M. K. Gold (Eds.) Debates in the Digital Humanities (pp. 124-126). Minneapolis & London: University of Minnesota Press. https://tinyurl.com/yc3k73nu

Searle, J. R. (1987). Esprits, cerveaux et programmes (E. Duyckaerts Trans.). Quaderni, 1, 65-96. https://tinyurl.com/3nyvr5ec

Stiegler, B. (2015). La Société automatique. 1. L'Avenir du travail. Paris : Fayard. https://tinyurl.com/yvts9ncf

Swedberg, R. (Eds.). (2014). Theorizing in Social Science. The Context of Discovery. California: Stanford University Press. https://tinyurl.com/bdepkpcn

Waldherr, A., Geise, S., Mahrt, M., Katzenbach, C, & Nuernbergk, C. (2021). Toward a stronger theoretical grounding of computational communication science. Computational Communication Research, 3(2). 152–179. https://tinyurl.com/hpvdwzp7

Whitehead, A. N. (1978). Process and Reality. An Essay in Cosmology. New York: The Free Press. https://tinyurl.com/43jxwdbt

Vargoz, F. (2018). Y a-t-il une philosophie des médias ? Acta fabula, 19(9). https://tinyurl.com/2p9969wz

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en

- ***Arabic references in English:***

Aarabe, Mohammed. (2013). Philosophy and Competency-Based Teaching in Secondary and Private Education. *The Arab Journal of Psychological Sciences, 39-40, 147-160.* http://tinyurl.com/2s4cxtr4

Al-Ma'ani. (n.d.). Definition and Meaning of "Hypostasis" in Al-Ma'ani Comprehensive Dictionary. http://tinyurl.com/wtxea339

Al-Fawaz, Fawaz bin Hamad. (June 27, 2017). The End of Theory: Financial Crises and the Failure of Economics "1". http://tinyurl.com/3kze3564

Anderson, Chris. (October 6, 2021). The End of Theory: The Data Deluge Makes the Scientific Method Obsolete *(Translated by Nouf Al-Saeedi). Oman Newspaper.* http://tinyurl.com/2mhdfzn9

Aït Nasser, Abdelhafid. (July 22, 2021). Intellectuals – Power – Truth: A Reading of Michel Foucault's Article "The Government of Truth." *Anfas Net.* http://tinyurl.com/mt4hpyv

Bottomore, Tom. (2004). The Frankfurt School *(Translated by Saad Hajras). Tripoli (Libya): Ouya Publishing House. (Original work published in English in 1984).* http://tinyurl.com/5n9be6ct

Deleuze, Gilles. (2009). Difference and Repetition *(1st ed.) (Translated by Wafaa Shaaban). Beirut: Arab Organization for Translation. (Original work published in French in 1968).*

Saeed, Jalaluddin. (2004). Dictionary of Philosophical Terms and References. *Tunis: Dar Al-Janoub Publishing.* https://shorturl.at/hxT45

Swedberg, Richard. (2017). Before Theory Comes Theorizing: How to Make Social Sciences More Engaging *(Translated by Hamid Al-Hashimi). Omran, 5(20), 165-187.* https://tinyurl.com/24kx67w7

Horkheimer, Max. (1990). Traditional and Critical Theory *(Translated by Mustafa Al-Nawi). Marrakech: Ouyoun Al-Maqalat. (Original work published in German in 1937).* https://shorturl.at/zB258

Citation**: Saddek, R. **Discourses on the decline of theories of media and communication.** Social Empowerment Journal. 2025; 7(1): pp. 24-41. **https://doi.org/10.34118/sej.v7i1.4150

***Publisher's Note:** SEJ stays neutral with regard to jurisdictional claims in published maps and institutional affiliations.*

This work is licensed under Creative Commons Attribution-NonCommercial 4.0 International (CC BY-NC 4.0)
https://creativecommons.org/licenses/by-nc/4.0/deed.en